الفصل الثاني عشر
في آخر حياة البطريرك إسطفان وانتقاله السعيد

قد تكلمنا طويلاً في الفصول السابقة عما طرأ على الجبة من حكم آل حمادة وعن الشرور والحروب التي صارت بسببهم فكان من ذلك ان الباب العالي أصدر أمرًا بعزلهم عن الحكم وبتولي غيرهم على مقاطعات شمالي لبنان. لكن تنفيذ الأوامر السنية كان موكولاً إلى ولاة طرابلس وكان هؤلاء ينزعون منهم الحكم تارة وطورًا يردونهم إلى مراكزهم ويطلقون لهم العنان في تدبير الرعية. ففي سنة ١٦٩٣ لما تسلم ارسلان باشا ايالة طرابلس عرض على الأمير أحمد المعني أن يتولى المقاطعات التي بيد المشائخ الحمادية ويكف أذاهم عن الايالة المذكورة فامتنع ابن معن وكثرت الفتن واستعرت الحرب بين ارسلان باشا والحمادية وكل من انتصر لهم. وسنة ١٦٩٧ نقل ارسلان باشا من ايالة طرابلس إلى إمارة الحج ونصب موضعه أخوه قبلان باشا.

وفي شهر أيلول كانت وفاة الأمير أحمد بن معن وبه انقرضت الدولة المعنية العادلة فاجتمع أعيان بلاد الشوف من أمراء ومقدمين ومشايخ واختاروا الأمير بشير الشهابي خلفًا له إلا أن الباب العالي أمر بتنصيب الأمير حيدر بن ملحم الشهابي ابن ابنة الأمير أحمد فوقع الأمر بيد ارسلان باشا حين رجع من إمارة الحج فاحتج ارسلان الأمير من الأمير بشير انه كفوء ولا يليق أحد غيره وأنه قام برضى أعيان المقاطعات. ثم في سنة ١٦٩٩ عاد ارسلان باشا على ولاية طرابلس ونقل أخوه قبلان باشا إلى صيدا ولما كان الشيخ مشرف بن علي الصغير قد قتل قومًا من عسكر الدولة وقصد العصيان استنجد عليه قبلان باشا بالأمير بشير فجمع هذا نحو ثمانية آلاف وقبض عليه أخيه. فقلد قبلان باشار الأمير بشير محافظة ايالة صيدا من بلاد صفد إلى جسر المعاملتين ورزق الأمير حظوة ليس فقط عند قبلان باشا بل عند أخيه ارسلان أيضًا وشفع في بيت حماده الذين كانوا لجأوا إلى سالفه المعني وأرجعهم إلى مواطنهم وضمن كل خراب وأذى يحدث منهم. فرجع الحماديون إلى ما كانوا عليه قبلاً ولم تلبث البلاد طويلاً في الراحة بعد رجوعهم لأنهم سنة ١٧٠٣ افتتنوا فيما بينهم وقام الشيخ عبد السلام ابن الشيخ اسماعيل على بيت الشيخ احمد حكام جبة بشراي فقدم الأول إلى الجبة وهزم بيت الشيخ أحمد إلى الهرمل وأقام في الجبة شهرًا وخمسة أيام وحضر إليه البعض من أعيان الجبة خوفًا من أذاه وهرب الباقون فحنق من عملهم وفرض دراهم على القرى وأخذ طاسات النساء وسلاح الرجال والحنطة وغير ذلك وكتب إلى طرابلس يلتمس الولاية على الجبة فوعدوه بها في السنة الجديدة[1].

[1] عن تاريخ الأزمنة.

https://patriarchdouaihy.com/ Maronite Patriarchal Exarchy Erden-Zghartа

لكنـه لـم يـتمكن مـن ذلـك بسـبب رجـوع الشـيخ عيسـى ابـن الشـيخ أحمـد مـن الهرمـل إلـى الجبـة واستيلائه على المقاطعة. والشيخ عيسى المذكور لم يكمل ايفاء المال قبل انهزامه فلما رجع إلى الجبة شرع في جمع الدراهم المتبقية عليه ليؤديها إلى متسلم طرابلس وبحسب عوائد طائفته لم يستحرم سبيلاً للوصول إلى غايته المذكورة. فحضر إلى دير قنوبين مع جمهور من ذويه وطلب من البطرك مبلغًا من المال فلم يستجب طلبهم فغب عيسى المذكور وصاح بالبطريرك وخاصمه ورفع يده الشقية ولطمه لطمة قوية أوشكت أن ترميه إلى الأرض لو لم يستند إلى الحائط فوقع المنديل من على رأسه. أما البطريرك فاحتمل هذه الإهانة بصبر ولم يجبن أو يفشل ولم يطرد من الدير أولئك الظالمين الأنذال. بل صعد إلى غرفته وكتب إلى الشيخ حصن الخازن وأخبره بما جرى له.

والشيخ حصن المذكور هو ابن فياض المعروف المعروف بأبي قنصوه وحفيد أبي نوفل الشهير وكان أبوه كبير إخوته من امرأة أبي نوفل الثانية وكان مع الأمير أحمد معن ابن الأمير يونس لما قتل أخاه قرقماس وحين ضرب الأمير قرقماس رفع رجل سيفه وضرب الأمير أحمد فجرحه في عنقه لكن فياض قبل أن تنزل الضربة على الأمير ضرب القاتل وجندله وحمى الأمير الجريح بشماله ودافع عنه باليمين إلى أن بعد الأعداء ثم بعد الموقعة التي صارت في بيروت فوق برج الكشاف بين اليمينة والقيسية وانكسار اليمينة وانهزامهم تولى الأمير أحمد المذكور حكم البلاد وقدّم الشيخ فياض. ثم بعد ذلك قامت الحكام والعساكر على الأمير أحمد وهرب من أمامهم إلى حاصبيا فأعاده السلطان مصطفى إلى مقامه الأول ففعل تفتجيًا في البقاع الشيخ حصن بن فياض ووكل غليه جمع الأموال من بلاد جبيل أيضًا. وبعد أن غزا المتاولة عشقوت وقرى كسروان بإيعاز آل حماده سعى حصن بطردهم من البلاد وعزلهم الحكم وأصدر أوامر شاهانية بذلك وتقدم حصن على جميع معاصريه وعظمت ثروته كثيرًا.

https://patriarchdouaihy.com
Maronite Patriarchal Eparchy Ehden-Zgharta

فلما انتهى إليه كتاب البطرك غضب جدًا وجهز نيفًا وأربعماية جنديًا وأرسلهم مع أخيه الشيخ ضرغام الذي اشتهر بقوته الزائدة ومهر بضرب السيف ورماية البندق ثم دخل في سلك الكهنوت وصار مطرانًا ثم بطريركًا كما هو مشهور.

وكان مع الشيخ ضرغام اثنان من أولاد عمه وهما الشيخ موسى طربيه[٢] والشيخ نادر بن خاطر[٣] وأمرهم حصن أن يأتوا بالبطريرك إلى كسروان وعند وصولهم إلى قنوبين علم الشيخ عيسى بأمرهم وجاء إلى البطريرك طالبًا منه السماح عن كل ما صدر منه. وبات عيسى تلك الليلة خارج الدير في العليّة التي بات فيها الفرسان والخيل وفي الغد دخل الدير وصعد إلى السطح حيث كانت جنود الشيخ ضرغام على صفين وبعد وصوله بقليل خرج البطريرك من قلايته وتقدم على السطح في وسط العسكر وجلس عند طرف السطح مع الشيخ ضرغام المذكور فأتى إليه الشيخ عيسى ووقف أمامه كالمذنب أمام ديانه وطفق العسكر يهزأ به وينتفون عمامته وهو لا يبالي. ثم أخذ البطريرك إلى ناحية وحده ووقع على قدميه قائلاً: أسألك يا مولاي أن تغفر لي زلتي ولا تنتقل إلى كسروان وأنا قدامك من الآن ورهين أمرك في كل ما تريد وإن شئت تدوس رقبتي الآن فافعل ما تشاء. وكان سبب خوفه من ذهاب البطريرك إلى كسروان وأن يعزل من الحكم ويسقط من عين شفيعه الأمير بشير. فأجابه السيد البطريرك: "إني أغفر لك جميع ما فعلته معي وإني لمستعد وغايتهي أن أحتمل أكثر من ذلك حبًا بسيدي الذي لأجلي تألم ومات. لكن شعبي لا يدعني أن أمكث في الجبة." وهمّ المشائخ الخوازنة أن يبطشوا بعيسى فنهاهم غبطته ورجع الشيخ عيسى إلى مكانه. وفي اليوم الرابع والعشرين من كانون الثاني تأهبوا للسفر لكنهم خافوا من المطر إذ رأوا البروق والرعود والرياح المنذرة بقرب انحدار الغيث فعدلوا عما نووا وقالوا نمكث في الدير إلى أن يصفو الجو فقال لهم البطريرك: قوّوا إيمانكم إيليا حبس المطر ثلاث سنوات وستة أشهر ونحن بقوة ذاك الذي سمع دعاء إيليا سيمنع المطر فلا ينحدر حتى نصل إلى قرية غزير. وهكذا صار لأنهم في الحال خرجوا من الدير وساروا في الطريق ثلاثة أيام حتى وصلوا إلى قرية غزير في كسروان مع أن الرياح كانت ثائرة والغيوم متلبدة ووقع مطر في محلات كثيرة في غضون سفرهم. ولما دنوا من غزير خرج لاستقبالهم عموم الأهالي بالأهازيج يتنازعون وكل منهم يريد أن ينزله في داره. فقال لهم: أسرعوا بنا قبل أن يدركنا المطر فما بلغوا البيوت حتى وقع المطر بغزارة عظيمة وعقبه الثلج حتى بلغ ساحل البحر وقد عاين هذه الآية جميع من كان معه وشاعت أخبارها في كل مكان وشهد بحقيقتها الشيخ درغام ورواها تكرارًا بعد ما جلس على الكرسي الانطاكي.

https://patriarchdouaihy.com/ Maronite Patriarchate Patriarchy Ehden Zgharta

[٢] طربيه ابن ابي نوفل ويعرف بأبي ظاهر وهو جد أولاد موسى وآخرهم بشاره جفال وقبره في كنيسة مار ضوميط في زوق ميكائيل مع ابنه موسى كما يشهد بذلك التاريخ الذي فوق باب الكنيسة المذكورة.
[٣] وخاطر ابن ابي نوفل وجد بيت أبي سرحان.

ولما خرج من دير قنوبين توجه إلى مغارة البارّة مارينا حيث مدفن البطاركة وجثا على ركبتيه وصلى بخشوع كالآباء القدمين وطلب من الله قائلاً: اللهم أسألك ألاّ تميتني خارجًا عن كرسيّ ولا تجعل مدفني بعيدًا عن أسلافي.

وحال وصوله إلى غزير تلقته الرعية بفرح لا يوصف وتوافدت الناس من سائر القرى لتأخذ بركته ومن ازدحام الشعب الذي خرج للقائه لبس الغفارة ومسك الصليب وركب فرسه وأخذ يبارك الجمع وأعين الكل شاخصة إليه. وبعد ذلك صعد إلى دير مار شليطا مقبس وسكن الدار التي ابتناها لأجل احتياج البطاركة وهناك قدم إليه المطارنة والمشائخ ووردت الهدايا من جميع الجهات. ومكث في كسروان نحو ثلاثة أشهر إلى أن أتته مكاتيب من والي طرابلس على يد الخواجه طربيه الماروني ترجمان ملك افرنسة من ضمنها الأمان وأن يرجع إلى كرسيه.

فكتب له من طرابلس الكتخدا ما نصه:

"إنه بلغنا ما صار عليك من هالمتلاعب عيسى سوّد الله وجهه فهالشيء ليس يرضى فيه حضرة افندينا المحترم حفظه الله تعالى ولكن سعادته بمزاجه كان مشوشًا فما أعلمناه حتى لا ينزعج خاطره الشريف فلزم اننا حررنا مكتوبًا للمير بشير نطلب بهذه الأمور الردية وحررنا أيضًا مكتوبًا على اسمعيل (حماده) وطلعنا في شلّه وما خلّينا عليهم غطّى انشاء الله تعالى بيلاقوا فعلهم وبيشاهدوا الندامه فالمراد تطيبوا خاطركم ولا يجي في بالكم كل خير نحن هذه الأمور ما نسكت عنها قطعًا".

https://patriarchdouaihy.com/
Maronite Patriarchal Eparchy Ehden-Zgharta

الحاج اسلام كتخذا

وبعد ذلك كتب إليه الأمير بشير الشهابي الأول وهو الذي استلم مقاطعات بني معن في لبنان الجنوبي كما قلنا وبما أن كتابات هذا الأمير نادرة جدًا أثبتنا ما وجدناه منها نقلاً عن الأصل المحفوظ في الخزانة البطريركية:

إلى حضرة أعز الأصدقاء والمحبين البطرك إسطفان المكرم حفظه الله تعالى.

أولاً مزيد الأشواق إلى رؤياكم في خير وعافية وبعده بلغنا أن الشيخ عيسى نزل لعندكم وصار منه تنكيد في حقكم وأخذ منكم دراهم بغير وجه حق ونحن هذا الشيء ما منرضى فيه خصوصًا

في حقكم ونحن أرسلنا إلى الشيخ عيسى مكتوبًا نعرفه خاطرنا بالكلية ونتلاوم عليه على هالفعلة التي صدرت منه في حقكم المراد أنكم تكونوا طيبين الخاطر من سائر الوجوه وتظلوا في مواضعكم ولا تقدموا قدامكم إلا كل مليح انشاء الله ما بقي عليكم اضامة لأنكم محبون وعلى كيسنا لا يخطر في بالكم إلا كل خير ولا تقطعوا أخباركم عنا والدعا:

بشير شهاب

وبالوقت نفسه كتب الأمير المذكور إلى آل خازن بهذا الخصوص:

إلى حضرة أعز المحبين المشائخ الخوازنة المكرمين.

أولاً مزيد الأشواق إلى رؤيتكم في كل خير وعافية وبعده نعرف محبتكم بسبب أحوال البطرك إسطفان ونحن يعلم الله تغلثنا بسببه لأجل خاطركم وناموسكم وحررنا مكاتيب إلى الجماعة بسبب ذلك والآن تفاوضنا مع عزيزنا الشيخ عيسى الدا وعرفناه خاطرنا تكونوا من كلامه على وثيقة وإنشاء الله ما فيه إلا كل خير وكل شيء في محله بينم قصدنا إعلامكم بذلك والدعا:

بشير شهاب

https://patriarchdouaihy.com/Ehden-Zgharta
Maronite Patriarchal Eparchy Ehden-Zgharta

وكتب آل حمادة وثيقة إليك نصها:

وجه تحرير الأحرف هو أنه اجتمعنا نحن وحضرة إخواننا المشائخ الخوازنة وتكلمنا معهم بسبب رجوع حضرة محبنا البطرك إلى ديره وطلبوا منا هذه الشرطية بيدهم بخطنا وختومتنا بأن الخرج المعتاد ماية وثلاثة وأربعين قرش بكل سنة ما نكلف الدير درهم الفرد ولا ذخيرة ولا أحد من ناسنا وجماعتنا ينازعوه ولا لهم عنده شغل ويكون عندنا مكروم معزوز ورزقه ورهبانه واجراته لهم عندنا الناموس والحماية والرعاية بسواب ناسنا وربعنا وحررنا هذه الوثيقة بيننا لأجل البيان والإقامة على هذا الشرط تحريرًا في شهر شوال سنة ١١١٥ صح.

عيسى حماده
الختم

اسماعيل حماده
الختم

فبهمة المشائخ الخوازنة قام من كسروان في التاسع عشر من نيسان وتوجه نحو الجبة وكان وصوله إلى قنوبين يوم السبت في السادس والعشرين من الشهر المرقوم وكان فرحه وسروره لا يوصف حتى أن الرهبان وكل من كان معه انذهلوا مما كان يظهر منه. وفي الغد يوم الأحد أقام قداسًا احتفاليًا ومنح العفران للذين رافقوه من كسروان إلى قنوبين وبعد الغذاء ودعوه وباركهم وشيعهم على خارج الدير ولما توجهوا أراد أن يعود إلى قلايته فلم يستطع أن يمشي خطوة واحدة فحمله شماسه وهو يشكر الله ويقول: أشكرك يا ربي لأنك استجبتني وما جعلت لي ميتة إلا في كرسيّ ولا دفنة إلا مع البطاركة أسلافي. ثم التفت إلى شماسه وقال له: قد وصل زمان نياحنا. من زمان كثير نحن في الكرسي فيجب أن نترك الكرسي لغيرنا. وبالحقيقة إن تدبير الله نحو عبده هذا لعجيب لأنه سمع ما طلب منه حين بارح قنوبين متوجهًا إلى كسروان لما جثا على قبور البطاركة في مغارة القديسة مارينا وتوسل إليه توسل يعقوب في مصر وطلب منه باكيًا أن لا تكون عظامه في أرض غريبة بل تجتمع مع عظام الأحبار المبرورين الذين سلفوه على كرسي قنوبين وتستريح في ذاك الدير المقدس وتلك المغارة التي عطرتها مارينا بعبير فضائلها وصلى فيها البطاركة الأطهار وجاهدوا في ظلها جهاد الشهداء الطوباويين. فقاده الله بعنايته الأبوية إلى الأرض التي طلب أن يموت فيها. فمن هنا ومن غيره ومن الكلام الذي فاه به عند شعوره بالمرض يتضح أنه كان شاعرًا بوقت انتقاله من هذا العالم.

https://patriarchdouaihy.com/ Maronite Patriarchal Eparchy Ehden-Zgharta

ولما بلغ إلى غرفته رمى ذاته على الفراش وصار المرض يثقل عليه من ساعة إلى أخرى ويوم الثلثاء اشتدت وطأته عليه فأحضروا له طبيبًا ماهرًا من طرابلس فحضر حالاً ومكث يومين يعالجه فلم تنجح المعالجة ولما نظر تقدم المرض واشتداده الشواذ على رجع إلى طرابلس يوم الجمعة ليأتي بأدوية ترجى منها فائدة للعليل فشعر البطريرك بذهابه وعلم نيته فقال للحاضرين أن الطبيب لا يجده في الحياة عند عودته من طرابلس لأنه سوف يموت في غيابه وحقق كلامه واقع الأمر.

أما البطريرك المغبوط فلما عرف بدنو أجله لم يحزن ولم يجبن وظهر أكثر من عادته فرحًا مسرورًا ملاطفًا كل من أتى يعوده. وكان يرتل مزامير وصلوات مختلفة ويتلو الطلبات وميامر القديسين وأقوالهم وكان يطلب من أساقفته ورهبانه أو من الحاضرين عنده أن يشتركوا معه بالصلوة ويرتلوا معه. وأكثر الأوقات كان يرتل المزمور **كتابة سريانية** "سبحوا الرب من السماوات سبحوه في الأعالي" إلى آخره. داعيًا مع المرتل رؤساء الملائكة وطغمات الملائكة إلى

تسبيح سيده إذ كان غير قادر على ذلك بذاته شكرًا له على الخيرات والنعم التي أفاضها عليه في حياته كلها.

وبقي إلى آخر ساعة يهتم بأمر طائفته ورعيته ويقضي مصالح أبنائه حتى اضطر المطارين والرهبان أن يزجروا أصحاب الدعاوى والمهمات ويطلبوا منهم أن ينصرفوا إلى وقت آخر قائلين: دعوه يموت في السكينة.

ويوم الجمعة عند الساعة التاسعة من النهار طلب أن يأتوه بالزاد الأخير فنزل المطارنة والأساقفة ورهبان الدير وغيرهم إلى الكنيسة وحملوا القربان المقدس وخرجوا منها بزياح ولما وصلوا أمام غرفته وقفوا جميعهم خارجًا وطفقوا يبكون ورفعوا صوت نحيبهم فسمع البطريرك صراخهم فانتهرهم وقال لشماسه: ألم يعاينوا أحدًا يموت غيري. أما هو فلم يضطرب من دنو الموت لأنه كان يشتهيه وينتظره في كل وقت قائلاً مع الرسول الذي كان حاملاً جسد الرب مع بعض الشمامسة لا غير. فتناول البطريرك الجسد المقدس بعواطف المحبة الحارّة وعبادة لا توصف وكان يرغب في أن يتقرب بيده لو لم يمنعه المرض عن ذلك. ورجع المطارنة والرهبان بالقربان إلى الكنيسة وخرّوا على الأرض أمامه وأخذوا يتلون الطلبات والصوات لأجله.

وعند نصف ليل السبت وطلب ماء ليشرب على شبه سيده الذي عطش على خشبة الصليب. ثم حلّ المربوطين والمحرومين وبارك بني رعيته الحاضرين والغائبين ثم من تلقاء ذاته ضم يديه إلى صدره على شكل صليب وبعد هنيهة اعتقل لسانه ومضى القليل حتى أطبق عينيه عن هذا العالم وأسلم روحه الطاهرة بيد الله وانتقل من دار الشقاء إلى الراحة الخالدة ليقبل جزاء الرعاة الصالحين مع اثاناسيوس وباسيليوس والذهبي الفم ومع سلفائه البطاركة المغبوطين وكل الذين ضاهوهم في خدمة الله وتدبير بيعته. وكان ذلك في سحر السبت في يوم الثالث من أيار سنة ١٧٠٤ بعد أن جلس على الكرسي الانطاكي اربعًا وثلاثين سنة إلا سبعة عشر يومًا لأنه ارتقى كرسي البطريركية في ٢٠ أيار سنة ١٦٧٠. وكان له من العمر ثلاث وسبعون سنة وتسعة أشهر وبقي إلى آخر حياته كامل القوى والحواس صحيح السمع والبصر. وكان معتدل القامة واسع الوجه مهيبًا طويل اللحية اقنى الأنف مفروق الحاجبين بهي العينين.

فأنزلوه حينئذ من قلايته إلى الكنيسة باحتفال وأجلسوه على كرسي أعدّ له وألبسوه الحلّة الحبرية ووضعوا على رأسه تاج المجد وبيساره عصا الرئاسة وبيمينه الصليب الكريم ووشحوه بدرع كمال الرئاسة. ولم يتغير بهاء وجهه عما كان سابقًا حتى أن الذين حضروا إلى الدير ولم يعلموا بموته

https://patriarchdouaihy.com/ Maronite Patriarchal Eparchy Ehden-Zgharta

لما رأوه على الكرسي ظنوه حيًا وكان النور يتدفق من محياه فقال بعض الناظرين: إن هذا الوجه ليس بوجه إنسان بل بوجه ملك.

ولما طار خبر وفاته تقاطرت الجموع الغفيرة من إكليروس وعلمانيين من قرى جبة بشري وغيرها وعجّ الوادي بصوت نحيبهم على أبيهم المغبوط وبكاه الأساقفة والأعيان ورثاه الأدباء وفي مقدمتهم القس جبرائيل فرحات الحلبي الشاعر الماروني الشهير وطفق الجميع يحيون ذكره ويخبرون عجائبه وفضائله ويصفون تقواه العميقة وسيرته الصالحة وأتعابه في وجه الطائفة وعلم الجميع أنها رزئت رزءًا جسيمًا بفقده وأخذوا ينوحون ويدعونه كالخراف راعيها لأنه كان مشيدًا عز الطائفة ورافع أعلام مجدها بين الأمم وضاهى بالعمل والعلم أسلافه البطاركة العظام الذين جلسوا على كرسي انطاكية المقدس وجعل طائفته وردة بين أشواك الارطقات والكفر وقوّاها على الثبات في طاعة الكنيسة لتكون بين الملل كالصخرة تلاطمها المواج وهي لا تتزعزع. وعند نهاية الجناز حمله الإكليروس بالاحتفال يتقدمهم الصليب المقدس والبخور والمصابيح إلى مغارة القديسة مارينا حيث اشتهى أن ترقد رفاته المباركة وأودع التراب بين سلفائه بالإكرام.

وبعد انتقاله طار خبر وفاته إلى كل الأقطار فالبطريرك جبرائيل البلوزاني الذي خلفه على الكرسي البطريركي كتب بتاريخ غرة آب سنة ١٧٥٦ إلى المجمع المقدس وقال: إن سالفنا البطريرك إسطفان المرحوم ما مات إلا من زود الإهانات والبلص والضرب والتشتيت عن كرسيه. وكتب إلى تلاميذ المدرسة الرومانية مبينًا عظم الخطب الذي حلّ بالطائفة وأفاض في الكلام على فضائله وقداسة سيرته قائلاً: أيها الأولاد الأحباء ربما بلغكم انتقال سالفنا المرحوم مار إسطفانس البطريرك الانطاكي من عالم الشقاء إلى عالم البقاء نسأل الله الذي منه إليه أن ينيح نفسه مع الآباء الأبرار ابرهيم واسحق ويعقوب والرسل الأخيار صحبة الذين بيّضوا حللهم بدم الخروف السماوي. فوا أسفاه على تلك القامة بل واحسرتاه على تلك العبادة وتلك الغيرة وتلك الأناة والعلم العميق...

وهكذا المطران يعقوب عواد كتب إلى الشماس يوحنا وهبه ابن أخي البار إسطفانس وإلى الشماس يوسف السمعاني وقال: وا أسفاه على قداسة حياته وطهارته. لكن هذا أمر الباري وحكم جاري.

http://patriarchdouaihy.com/
Maronite Patriarchal Eparchy Ehden-Zgharta

والشماس يوسف بن جرجس الحلبي الماروني كتب إلى تلاميذ رومة قائلاً: صوت سمع في لبنان. الموارنة يبكون وينوحون على أبيهم ولم يريدوا أن يتعزوا لفقده لأنه لم يكن.

ويردف قوله بهذه العبارة: قد يبس السوسن وذبلت الوردة وانتهت التعاليم وكملت القداسة. وابن أخيه الشماس يوحنا السابق ذكره كتب في مقدمة مجموع الحوادث الذي سبقت الإشارة إليه: يا حيف على تلك القامة المستقيمة واحزناه على ذلك العقل الدقيق والعلم العميق على تلك العبادة والقداسة والطهارة والتواضع. واحسرتاه على تلك الغيرة القوية على عز الطائفة وارتفاع شأن البيعة. إلى غير ذلك من عبارات الأسف على فقده.

وقد أحببنا ذكر أقوال الذين عرفوه بحروفها لأجل رقة معانيها وخلوص عواطف الذين كتبوها ونحن بعد مئات السنين تغرورق اعينا بالعبرات عند قراءتها وبالحقيقة إن الرجال الذين على مثال الدويهي لا تبخل عليهم الأجيال بدموعها ويعشق الخلف مناقبهم الحميدة ويكبر ذكرهم مع مرور الأحقاب.

وبعد موته شاء الله أن يعطي الآيات بشفاعته كما كان يفعلها في حياته وحن نختم ترجمة البطريرك المغبوط بذكرها نقلاً عن رواية البطريرك سمعان عواد.

قال المؤرخ المذكور عن ذاته: أنا سمعان عواد بينما كنت راجعًا من رومة مع رفيقي الشماس يوحنا وهبه عصفت الرياح وتعالت الأمواج فانزعجنا جدًا وبعدنا بالمركب بنا إلى إحدى المين اختلفت الريح وردته إلى الوراء فأشرف على الغرق. فتوسلت إلى البار إسطفانس وقلت: يا مار إسطفانس اشفع بنا ونجنا من هذا الضيق وبلغنا الميناء بالسلام. ونذرت تتميم سيرته إذ كنت ابتدأت بها قبل سفري من رومة. فسكنت الريح والأمواج وبلغنا المينا سالمين.

وأخبر أيضًا آية أخرى شاهدها بنفسه قال: إن ابرهيم جلوان السمراني أحد تلامذة المدرسة مرض مرضًا ثقيلاً واشتدت عليه حمى خبيثة وأشرف على التلف فجاءه معلم اعترافه بذخائر القديس لويس والقديس اغناطيوس فلم يشعر بفائدة ولم ينل فرجًا فلما رأيته أنا سمعان عواد بهذه الحالة أخذت كتابًا من كتب البار إسطفانس ووضعته على رأسه وقلت مصليًا: اللهم الذي زينت حبرك بالفضائل والاستحقاق أسألك أنه كما كان لنا أبًا على الأرض فليكن لنا شفيعًا لديك ونسألك بواسطته أن تشفي عبد هذا. ثم فتحت الكتاب وقلت له أن يقبل خاتم البطريرك وخط يده وجعلت الكتاب فوق رأسه ونزلت إلى العشاء. وبعد قليل صعدت إلى غرفته فأخذني العجب لأني فارقته

http://patriarchdouaihy.com/
Maronite Patriarchal Eparchy Ehden-Zgharta

مضطجعًا يتلقى من شدة الحمى ووجدته عند رجوعي إليه جالسًا معافًى. وعجبت مع إخوتي التلاميذ الذين عاينوا الآية ومجدنا الله تعالى.

ومن الآيات التي صنعها بعد موته أن رجلاً من قرية بلوزا واسمه بطرس كبيش كان مضنوكًا بمرض عضال من زمان طويل فطلب من ذويه أن يحملوه إلى مغارة القديسة مارينا حيث قبر البطريرك إسطفان ليطلب شفاعته ويستغيث به فحملوه إلى المغارة المذكورة ووعوه على قبر البطريرك وتركوه ودخلوا الدير للغذاء. فأخذ المريض يتوسل إليه فترآى له القديس بصورة بهية لابسًا الحلة الحبرية وعلى رأسه تاج الرئاسة وعلى منكبيه درع كمال السلطان البطريركي وإذا برائحة لذيذة عبقت بها المغارة فطفق المريض يتوسل ويبتهل بحرارة لذيذة عبقت بها المغارة فطفق المريض يتوسل ويبتهل بحرارة فخاطبه البطريرك بألفاظ عذبة قائلاً: يا بطرس كبيش ماذا تريد. فأجابه: يا سيدي أن أشفى. فقال له: المسيح يشفيك. وتوارت الرؤيا فنهض بطرس وأخذ يمشي مستويًا ودخل الدير مخبرًا بما جرى له فعجب من ذلك الذين أتوا به محمولاً والحاضرون ومجدوا الله. وبينما كان راجعًا إلى بيته التقى براهبين فرنسيين فقص عليهما الأعجوبة. فلم يصدقاه حتى أثبت خبره بالقسم على الإنجيل الطاهر.

وقد حدث مثل هذه الآية مع بركات بن رزق وإلياس محاسب الغسطاوي الذي صار بعدئذٍ مطران عرقا.

وقيل أن البطريرك إسطفان لما كان آتيًا إلى كسروان مرّ بمحل يسمى بطا البربارة في بلاد جبيل على طريق البحر فوجد بعض الفلاحين يحرثون الأرض الصعبة تاركين الجيدة بورًا. فسألهم عن سبب ذلك فقال له أحدهم: يا معلم (لأن سكان تلك القرى من الطائفة الملكية) أن في الأرض الجيدة دودة تأكل الزرع حين تخرج أسباله فتركناها. فطلب منهم البطريرك ماء وصلّى وأمرهم أن يرشوه عليها ففعلوا وزرعوا الأرض فلم تؤذها الدودة إلى حين وفاته وحينئذ رجعت الدودة كما في السابق وتركت الأرض فاتفق أن الشيخ يوسف الدحداح العاقوري كاتب الشيخ اسماعيل بن سرحال حمادة حضر إلى تلك القرى لجمع الأموال الأميرية فقصوا عليه الحادثة فقال لهم: يذهب واحد منكم إلى قنوبين ويسأل عن ضريح البطريرك إسطفان ويأخذ من تراب ضريحه والقوة في حقولكم وازرعوها. ففعلوا كما أمرهم وزرعوا الأرض فأثمرت وهم يزرعونها إلى الآن وشهد بحقيقة هذه الآية كثيرون.

https://patriarchdouaihy.com/ Maronite Patriarchal Eparchy Ehden-Zgharta

وكل الآيات السابق ذكرها كانت محررة باللاتينية ومحفوظة في مدرستنا الرومانية وقد أرسلها للمدرسة المذكورة الشدياق مخائيل القرطباوي تلميذ رومة في العشرين من آب سنة ١٧٠٥ وأثبت أنه سمعها من الذين حدثت معهم.

قال البطرك سمعان عواد أن المسقومين يأخذون من تراب ضريح الدويهي من مغارة القديسة ومن العشب الذي ينبت عليه ويتباركون منه ويشفون من سائر أمراضهم وإن من أنكر ذلك لقد أنكر ضوء الشمس.

ونحن بالروح والشوق نجثو على حضيض تلك المغارة التي جثا فيها أبونا وفخرنا البطريرك إسطفانس ونطلب بشفاعته وشفاعة صاحبة المقام البركة لنا وللطائفة ونقبّل بعوطف حارة التراب الذي ضم أعظمه.

https://patriarchdouaihy.com/
Maronite Patriarchal Eparchy Ehden-Zgharta